الظاهر والباطن في الإسلام بمنظار الشيخ البهائيّ[1]
جدلية العلاقة بين الفكر والممارسة

مؤتمر تكريم الشيخ البهائيّ
دمشق 2010
أ. د. دلال عباس

إنّ الغاية من هذا البحث مقاربة أهم فكرة دعا إليها الشيخ البهائيّ في نتاجه الفكريّ والأدبيّ، وهي التوفيق بين الشريعة والحقيقة، أو بين الظاهر والباطن، أي بين الفكر الذي يحمله الإنسان وبين قدرته على ممارسة هذا الفكر عمليًا.

لذلك سنحاول النظر في هذا الأمر من منطلقين اثنين:

أولاً: الصراع الذي عاناه الشيخ في نفسه بين ما دعا إليه من عدم الركون إلى الحكّام وبين تولّيه مِشيخة الإسلام زمن الشاه عباس الكبير (995هـ- 1587م- 1038 هـ - 1628).

ثانياً: دعوتُه إلى التوفيق بين الظاهر والباطن في أدبه لا سيّما في مثنوياته[2] الفارسية.

1- إنَّ مسألة تولي الشيخ البهائيّ "**مشيخة الإسلام**" لها ارتباط وثيق بشخصيته، لأنَّ هذه المسألة أثارت جدلاً بين مدوّني أخبارِه، منهم مَن أغرق في الحديث عن أهميّته في دولة الشاه عباس، وعَدَّ هذا الأمر دليلاً على مكانته، بينما حاول آخرون أن ينفوا عنه تهمة الالتحاق بركاب الشاه عباس، كي لا يحمّلوه جزءًا من أوزار أفعال الشاه عباس اللاإسلامية.

---

[1]- الشيخ البهائيّ: الكاتب الشاعر، الفقيه الفيلسوف المتصوّف، الرياضي المهندس، عاش في القرن السادس عشر الميلادي، العاشر الهجري، في حمأة الصراع بين الدولتين العثمانيّة والصفويّة. اسمه: محمد بن عز الدين الحسين بن عبد الصمد بن شمس الدين محمد بن علي بن الحسين بن محمد بن صالح العامليّ، الجبعيّ، الحارثيّ الهمدانيّ. كنيته: أبو الفضائل، ولقبه "البهائيّ" نسبة إلى بهاء الدين، وهو تخلص للشاعر على اصطلاح شعراء الفارسية. العامليّ نسبة إلى جبل عامل، والجبعي نسبة إلى قرية جبع التي تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة صيدا، والحارثيّ الهمْداني: لأن أسرته تنتسب إلى الحارث بن عبد الله الأعور الهمْدانيّ، التابعيّ الشهير المتوفى سنة 65هـ/684م.
كانت ولادته في بعلبك سنة 953هـ/1546 ووفاته في إيران سنة 1030هـ/1628. ومدفنه في مدينة مشهد قرب مرقد الإمام علي الرضا (ع).
هاجر مع أبيه الشيخ حسين بن عبد الصمد تلميذ الشهيد الثاني إلى إيران وهو في السابعة من عمره، وهنالك عاش معظم حياته وارتبط اسمه باسم أشهر ملوكها "الشاه عباس الكبير"، وألف وأبدع فيها أهم مؤلفاته، وترك بصماته على كثير من معالمها العلميّة والفنيّة والحضاريّة.

[2]- المثنوي: في المثنوي الذي يُستعمل لموضوعات مختلفة وخصوصًا للحكايات والقصص والأمثال، يجب أن يكون لكل مصراعين قافية واحدة، وأن تكون أبيات المنظومة الواحدة من وزن واحد. ومثنويات البهائيّ هي: "نان وحلوا" أي الخبز والحلوى- و "شير شكر" أي الحليب والسكّر و "نان وپنير" أي الخبز والجبن... أما العنوان الطعاميّ الذي يعطيه للمثنويات فإنّما يرمز إلى الدنيا وملذاتها الماديّة العابرة.
وكلّ واحد من هذه المثنويات مؤلف من مجموعة من الفصول أو القصائد.

الحقيقةُ أنَّ البهائيّ تولّى مِشيخة الإسلام مرّتين، المرّة الأولى في هراة لأقل من سنتين بعد أبيه في العام 984هـ، والمرة الثانية حوالى العام 1008هـ/1599م، زمن الشاه عباس، وظل في هذا المنصب إلى أواخر حياته[1].

في هذا الإطار يجب ألاّ ننظر إلى الأمر من زاوية الارتباط الشكليّ بين الحاكم والفقيه، ولا أن نضع الشيخ البهائيّ في مصاف الفقهاء الذين تحولوا في الدولتين العثمانيّة والصفويّة إلى مجرّد موظّفين، ارتبطت مصالحُهم بمصالح الحكّام والسلاطين، فأضفوا بهذا الارتباط طابعًا دينيًا على سلطة الحكام، بل على قبائحهم.

إنّنا نستبعد أن يكون الشيخُ البهائيّ الفقيهَ المسوّغَ لأعمال الجَوْر والعَسَف لسببين:

أولهما: شخصية الشيخ العلمية، **وثانيهما:** أنّ الشاه عباس كان حريصًا على الانفراد بالحكم، لذلك لم يعطِ رجالَ الدين فرصةً للتدخل في الشؤون السياسية، فقد قنَّن سلطتهم بعد أن كانت مطلقة في زمن جدّه طهماسب (930هـ- 984هـ = 1523- 1576م) وأبيه محمد خدابنده (985- 995هـ- 1577- 1587م) فاقتصر دورُهم على الأمور الشرعيّة، و لم يكن لهم دور في مسار الدولة، داخليًا وخارجيًا[2]، أي عكس ما فعله جدّه طهماسب الذي أطلق يد رجال الدين في شؤون المملكة.

بعيدًا من الأمور السياسيّة، كان الشاه عباس مجلاً للعلماء محترمًا لهم[3]، وخصوصًا الشيخ البهائيّ الذي كانت له مكانته وشهرته العلمية قبل تولي عباس الحكم، و لم يجد الشاه القويّ، في سعيه لإيجاد دولة قويّة، أفضل من هذا الشيخ يسلّمه زمام مشيخة الإسلام، ولقد كانت للشيخ سلطة معنويّة على الشاه هي سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر.

كان له من قوة شخصيته دافع لأن يجهر بقول الحق، وهو في منصبه وله دالّة على الحاكم، فاستطاع أن يصلح الكثير من الأمور، التي ما كان يمكن أن تَصلحُ، لو اعتزل هو كما اعتزل غيرُه، وقد استطاع أن يحفظ طموحه وعزّته بالله من أن تنكسرَ، أو تسقطَ في قبضة الجَوْر، وما كان الاقتراب من الشاه، إلاّ لحفظ مصالح الناس، الذين كانوا يلجأون إليه، بدلاً من أن يعتزل الحياة العامة ويريح نفسه من عناء المجابهة، ويقول المؤرخون إنّ داره كانت ملجأً الأيتامِ والأرامل وطلاب العلم الوافدين إلى إيران من خارجها.. وهو يقوم بنفقتهم ورعايتهم[4].

---

[1]- راجع: سلافة العصر، ص 290، وريحانة الألبا، ج1، ص 208، وخلاصة الأثر، ص 441. وبهاء الدين العامليّ أدبيًا وفقيهصا وعالمًا من ص 173 حتى الصفحة 200.

[2]- راجع: نصر الله فلسفي: زندگانى شاه عباس اول، ج2، ص 392، 395، وج4، ص 87 وإيران در زمان صفويه، ص ....

[3]- (م.س)، وأعيان الشيعة، ج8، ص 81.

[4]- سلافة العصر، ص 291، وخلاصة الأثر، ج3، ص 414.

ولم يتوانَ عن انتقاد الشاه في كثيرٍ من المواقف، في حدود ما رسمه لنفسه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ويذكر لنا المؤرخون عددًا من الحوادث التي تدلّنا على موقف الشيخ البهائيّ الجريء والصريح من الشاه، على سبيل المثال: عندما قُتل صفي ميرزا ولي العهد بأمر من أبيه الشاه عباس ظلّت جثته مطروحة في الوحل، إلى أن أمر الشيخ البهائيّ أن تُرفع الجثّة وتُغَسَّل وتكفَّن ولام الشاه على فعلته لومًا جعله يشعر بالندم، ندمًا رافقه طيلة حياته[1].

ومعارضته للشاه عندما أقام عيد الأضواء في محرم الحرام[2]؛ ويمكننا إضافةً إلى هذه المواقف التي ذكرنا، أن نردّ الكثير من إيجابيات الشاه عباس الحاكم إلى تأثير الشيخ البهائيّ، بتأثيره أبطل الشاه عادة سبّ الخلفاء[3]، هذه البدعة التي بدأت في عهد الشاه إسماعيل مؤسّس الدولة الصفوية واستمرّت طيلة حكم الشاه طهماسب والشاه محمد خدابنده والد الشاه عباس.

وقد أورد المؤرخون قصة لها دلالتها تبيّن مسلك الشيخ البهائيّ وهو في أوج المنصب تقول القصة إنه "نُميَ إلى الشاه عباس، أنَّ شيخ الإسلام أي بهاء الدين نفسه، كثيرًا ما يجوس في أحياء الفقراء، ويدخل أكواخهم ويجالسهم، فاستحسن أن يلفته بلباقته إلى أنَّ هذه الزيارات، لا تتناسب ومكانةَ شيخِ الإسلام فقال له يومًا: لقد سمعت أنَّ أحد كبار العلماء يكون مع الفقراء والأراذل في أكواخهم وهذا أمر غير لائق، فأجابه الشيخ: هذا الأمر غير صحيح فأنا كثيرًا ما اكون في تلك الأماكن، ولم يحدث أن رأيتُ أحدًا من كبار العلماء هناك"[4].

هذا يعني أنَّ البهائيّ سلك مسلكًا مختلفًا كل الاختلاف عن مسلك غيره من العلماء الذين كانت لهم منزلةٌ كمنزلته أو أقل منها في إيران، ممّن بالغوا في مظاهر التعظيم لأنفسهم وكانوا لا يخرجون إلا في مواكب شبيهة بمواكب الملوك، ولعلّه بمسلكه هذا أثبت عمليًا، أنّه لا يستسيغ مظاهر الترف التي كان العلماء من معاصريه ومعاصري أبيه في إيران يحيطون أنفسهم بها[5]، فكان تعليمُه للشاه وللناس بسيرته ومسلكه خيرًا من تعليمه لهم بلسانه.

أنموذج بديع للبساطة والعظمة، لحرية التفكير وحرية السلوك، من دون خضوع لمظاهر الوقار المصطنع والكبرياء الزائفة، وهذا ما أكسبَه حبَّ الناس وتقديرَهم في حياته وبعد مماته[6].

---

[1]- رندگانی شاه عباس اول، ج1، ص 291.

[2]- (م.ن)، (ج.ن)، ص 291. وعيد الأضواء: هو عيد اخترعه الشاه عباس يقيمه في أي وقت يشاء، حيث تضاء القناديل التي لا يحصيها العدد، ويدعو الشاه إلى هذا الاحتفال سفراء الدول الأجنبية والسيّاح والتجار.

[3]- (م.ن)، ج5، ص5.

[4]- التنكابني: قصص العلماء ص 184، وأعيان الشيعة، ج9، ص 236، ومستدرك الوسائل ج3، ص 440.

[5]- راجع أعيان الشيعة، ج7، ص 145، ففيه ذكر لعلماء كبار كانوا يعيشون عيشة الملوك.

[6]- لقد أثنى المؤرخون على أخلاقه وتواضعه، وإلى أنّ مختلف الفرقاء واتباع المذاهب المتباينة كانوا يحترمونه ويقدرونه: راجع: رياض العلماء، ج5، ص 88، وخلاصة الأثر، ج3، ص 440، ورحيانة الألبا، ج1، ص 208، وسلافة العصر، ص 290.

لقد أعطى الشيخ بمسلكه درسًا للشاه الحاكم، فسار على خطاه، فكان يخرج إلى الأسواق والأحياء الشعبية للاطّلاع على أوضاع الرعيّة، فيعمد إلى تخفيف الضرائب عن كواهلها ويجوس الأسواق متنكّرًا، يشتري من الباعة ليتأكّد من أنّهم لا يطفّفون المكاييل، ولا يتلاعبون بالأسعار، ويلجأ إلى الشدّة والقسوة في محاسبة المرتشين والغشاشين، كما كان يتنكّر ويزور القرى البعيدة، يسأل الرعية عن ولاتهم، فإن وجد أنّهم يسلكون مسلك الرشاد أبقاهم في مناصبهم وإلا عزلهم ونكّل بهم[1].

أراد الشيخ البهائيّ الحدّ من المظالم، فعاش صراعًا حادًّا في نفسه بين الواقع الذي يعانيه وبين الموقف المثالي الذي كان يدعو إليه.

إنّ أدبه شعرًا ونثرًا يُعطينا صورةً واضحة عن ذلك الصراع الذي واجهه الشيخ في حياته، لأنه لم يعش في برجه العاجيّ، وإنما عاش بين الناس بمختلِف طبقاتهم وطوائفهم ونحلهم، واستطاع أن يكوّن لنفسه من بين كلّ الآراء المتصارعة موقفًا ثابتًا، واحدًا، خاصًّا به.

إنّ لهجة الرفض والاحتجاج تظهر قوية لديه في كثير من المواقع في مواجهة السلطة، وقد ظلّ الصراع محتدمًا في نفسه بين ما تعلّمه من أبيه ورُبّي عليه، وبين المواقف التي وجد نفسه مضطرًا إلى أن يتخذها.

يقول إنه تعلَّم من أبيه هذا القول من أقوال القدماء:

"شرُّ العلماءِ مَن لازم الملوك، وخيرُ الملوكِ مَن لازم العلماء"[2]. وقد أورد في الكشكول سوانحَ كثيرة يعبّر فيها أنه نادم على حياته تلك ويرجو الخلاص منها: "أيّها الغافل شابَ رأسُك، وبَردَتْ أنفاسُك، وأنت في القيل والقال، والنزاع والجدال، فاحبسْ لسانك عن بسط الكلام، في ما لا ينفعك يوم القيامة"[3].

إذًا لم يكن في أعماق نفسه راضيًا عن علاقته بالشاه، لأنّ الحكّام لا يكتفون من العالِم بالعلم والصلاح، وإنّما يريدون أن يشاركهم في ما هم فيه كائنًا ما كان، سواء أكان ذلك يتوافق وخطوطَ الإسلام أم يبتعد عنها، وهذا ما وصفه البهائيّ في إحدى سوانحه بقوله: "مصاحب الملك محسودٌ بين الأنام من الخاصّ والعام، لكنّه في الحقيقة مرحومٌ، لما يرد عليه من الهموم الخفيّة، التي لا يطّلع الناس عليها، ولا تصل أنظارُهم إليها، ولذلك قال الحكماء: صاحب السلطان كراكب الأسد، بينما هو فرسه إذ هو فريسته، فلا تكن مغرورًا من جليس

---

[1]- زندگانی شاه عباس اول، ج2، ص 368- 370.
[2]- الكشكول، ط أعلمي، ج1، ص 230.
[3]- (م.ن)، ج3، ص 39.

الملك وأنيسه، بما تشاهد من ظاهر حاله، وانظر بعين الباطن إلى توزّع باله وسوء مآله، وتقلّب أحواله"[1].

مرارة نفسية يشعر بها مصاحب الملوك من العلماء، مع شعور دائم بالإثم للسكوت عمّا يرتكبه الحكام، مما هو مخالفٌ لأوامر الشرع ونواهيه.

وفي مكان آخر من الكشكول، يسمّي الأموال التي يحصّلها من الحاكم: "الأموال الملعونة": فهو بعد أن يروي حديث الإمام الصادق (ع) يقول: "اتقوا الله وموّتوا أنفسَكم بالورع، وقوّة الثقة، والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى صاحب سلطان، واعلم أن مَن خضع لصاحب سلطان، أو لمن يخالفه على دينه طالبًا لما في يديه في دنياه، أخمله الله ومَقَتَه عليه، ووكّله إليه، فإن هو غلب على شيء من دنياه، فصار إليه شيءٌ منه نزع الله منه البركة، و لم يؤجِره على شيء من دنياه ينفعُه في حجٍّ ولا عتق ولا برّ...".

يقول البهائيّ: "لقد صدق رضي الله عنه، فإنّا قد جرّبنا ذلك وجرّبه المجرّبون قبلنا، واتفقت الكلمة منّا ومنهم على عدم البركة في تلك الأموال الملعونة، نسأل الله أن يرزقنا رزقًا حلالاً طيبًا، يكفينا ويكفّ أكفّنا عن مدّها إلى هؤلاء وأمثالهم، إنه سميع الدعاء، لطيف لما يشاء"[2]. وينقل البهائيّ من تفسير "النيسابوري"[3] عند تفسير قوله تعالى: ***{أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله}***[4] ما لفظه: كان أبو الفتح المنهي قد برع في الفقه، وتقدّم عند العوام، وحصل له مالٌ كثير، ودخل بغداد وفوّض إليه التدريس بالنظامية[5] وأدركه الموت بهَمَدان، فلما دنت وفاته قال لأصحابه: اخرجوا فخرجوا، فطفق يلطم وجهه ويقول: يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله، ويقول: يا أبا الفتح: ضيّعت العمر في طلب الدنيا، وتحصيل الجاه والمال، والتردد إلى أبواب السلاطين وينشد:

عجيبٌ لأهل العلم كيف تغافلوا ... يجرّون ثوب الحرصِ عند المهالكِ

يدورون حول الظالمين كأنّهم ... يطوفون حولَ البيت وقت المناسكِ

وظلّ يردد الآية حتى مات... ويضيف البهائيّ: "نعوذ بالله من الموت على هذه الحالة ونسأله جلّ شأنه، أن يمنَّ علينا بالتوفيق للخلاص من هذا الوبال"[6].

---

[1]- (م.ن)، ج1، ص 211.

[2]- الكشكول، ج1، ص 289.

[3]- النيسابوري: نسبة إلى مدينة نيسابور في خراسان من مدن إيران التاريخية المعروفة بين طهران والمشهد الرضوي، وهو محمد بن حسين المعروف بنظام النيسابوري أو الأعرج، له مؤلفات في الرياضيات والأدب، وتفسيره من تفاسير الدرجة الأولى عند أهل السنة: فرهنك فارسي مج6، ص 320، ص 2668، والإسلام وإيران.

[4]- ج، 23/س الزمر 39/ي 56.

[5]- النظامية: نسبة إلى نظام الملك (408هـ- 1018م)، أبي علي الحسن بن علي بن إسحق الطوسي.

[6]- الكشكول، ج1، ص 63.

هذا الدعاء الذي يسجّله الشيخ البهائيّ يترجم الحالة النفسية التي رافقته في رحلة حياته، إذْ لم يكن راضيًا عن نفسه وكان يردّد: "مَن شارك السلطان في عزّ الدنيا، شاركه في ذلّ الآخرة"[1].

إنَّ قربه من الشاه، لم يكن كما يبدو من إشاراته مدعاةً للرضى، بل كان سببًا لقلقٍ وجداني تحركه جذوةُ إيمانه إلى درجة تدفعُهُ إلى الندم على خروجه مع والده من بلاد الشام وجبل عامل إذ يقول: "لو لم يأتِ والدي من بلاد العرب إلى بلاد العجم، ولم يختلط بالملوك، لكنت من أتقى الناس، وأعبدهم، وأزهدهم، لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد، وأقام في هذه الديار، فاختلطتُ بأهل الدنيا، واكتسبتُ أخلاقَهم الرديئة، واتّصفت بصفاتهم الدنيئة، ثم لم يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا إلا القيلُ والقال، والنزاعُ والجدال، وآل الأمر إلى أن تصدّى لمعارضتي كلُّ جاهل، وجسرَ على مباراتي كل خامل"[2].

يقارن البهائيّ في هذه السانحة بين حالتين: بين حالته لو كان قد ظلَّ هو وأبوه في جبل عامل، إذًا لتفرّغ- كما كان يقدّر- للعلم والعبادة، ولكان عاش حياة زهد وقناعة كغيره من علماء جبل عامل، الذين عرف سيرتهم من أبيه- وبين حالته في إيران:

لقد وُجد مَن يحاول أن يغضّ من قيمته، وأن يثير حوله الشكوك والأوهام والظنون، وحاول البعض من طريق الوشايات والتلميحات اللئيمة أن يُنزلوه من مستواه الرفيع إلى مستواهم القائم على الارتزاق والنميمة[3].

وفي نهاية كتابه "الحبل المتين" يتوسّل إلى الله سبحانه: "أن يجعل بقية العمر مقصورةً على الطاعات، وتداركِ ما فات، مجنَّبةً من التدنّس بأدناس السيئات، مصروفةً في اكتساب السعادات الحقيقيّة"[4].

كان طبيعيًا من عالمٍ مثله أن تتعمّق محنتُه، فهو في قرارة نفسه غيرُ راضٍ عن ارتباطه بالحاكم مع ما جرّ عليه ذلك الارتباط من قيل وقال، ونزاع وجدال، فكان ذلك من بواعث تنغيص حياته أحيانًا فيلجأ إلى العزلة تنفيسًا عن كربته: "العزلة عن الخلق هي الطريق الأقوم الأسدّ، كما وردَ في الحديث: "فرّ من الخلق فرارك من الأسد"، فطوبى لمن لا يعرفونه بشيءٍ من الفضائل والمزايا، فالفرارُ عنهم والبدارَ البدارَ إلى الخلاص منهم، وبهذا يظهر أنَّ الاشتهار

---

[1]- الكشكول، ج1، ص 135.
[2]- (م.ن)، ج1، ص 213.
[3]- (م.ن)، ج1، ص 210.
[4]- الحبل المتين، منشورات مكتبة بصيرتي، ص 263.

بالفضائل من جملة الآفات، وأنَّ خمولَ الاسم أمانٌ من المخافات. فاحبس نفسَك في زاوية العزلة، فإنَّ عزلة المرءِ عزٌّ له"[1].

ولكنَّ العزلة لم تكن مستطاعة بالنسبة إليه، لذلك ظلَّ هذا القول ضمن حدود الدعوة أو الأمنية التي لم تتحقق إلاّ لأوقات حدودة، لأنه آلى على نفسه أن يعايش الناس، ويسعى جاهدًا إلى الإصلاح ما أمكنه ذلك، لذا فإنّ معايشة الناس، وتعرّفه أحوالَهم، جعلتا ظنّه يسوءُ بالنسبة إلى زمانه وأهل زمانه: "من طلب في هذا الزمان عالمًا عاملاً بعلمه بقيَ بلا علم، ومَن طلبَ طعامًا بلا شبهة بقيَ بلا طعام... ومَن طلب صديقًا بغير عتب بقيَ بلا صديق"[2].

نضيف إلى سمو تفكيره، أنه لم يتعصّب لمذهبٍ على مذهب، ولم يتحزّب لفريق من الفرقاء المتصارعين- في وقت كَثُرت فيه المذاهب والبدع-، وإنما كان يعاشر أهل كل فرقة بالحسنى ويتدرج فيهم بأساليب الإصلاح، وهذا الأمر هو الذي حدا بكل فريق أن يعدّه منهم: فأعمل جَهدَه في الجمع بين أنصار الشريعة وأنصار الطريقة، بين متزمّتي الفقهاء ومتطرّفي العرفاء... وعمل جاهدًا على إصلاح ما فسد من الأخلاق والأوضاع العامة، وانتقد الجمود والتقليد، وشنَّ الحملة تلو الحملة في شعره ونثره، بالعربيّة والفارسيّة، على الفقهاء الجامدين القِشريّين وعلى أدعياء التصوّف، المرتزقين من الدجل والشعوذة والرياء... فكان من الطبيعي أن يوجِّه إليه المتضرّرون من نقده، أو الذين لم يفهموا دوافع أقواله وأفعاله بعضَ المطاعن والتهم، شأنُه شأنُ العظماء والمفكرين، الذين يسمون بتفكيرهم على تفكير الناس، فتُوجَّهُ إليهم الانتقادات[3].

لقد أكثر الشيخ البهائيّ في كتاب "الكشكول" من إيراد الأحاديث التي تحثُّ على ترك الدنيا، والتي تنفّر من صحبة الملوك أو السعي وراء المنصب، كقول يحي بن معاذ: "أيّها العلماء إنَّ قصورَكم قيصريةٌ وبيوتَكم كسرويةٌ ومراكبَكُم قارونيةٌ وأوانيَكُم فرعونيةٌ وأخلاقَكُم نمرودية وموائدَكُم جاهليةٌ، ومذاهبَكُم سلطانيةٌ فأَينَ المحمديَّة؟"[4].

وقوله: "إذا لم يكن العالِمُ زاهدًا في الدنيا فهو عقوبةٌ لأهلِ زمانه".

وقوله: "إذا رأيت العالِم يلازم السلطان فاعلم أنه لص، وإياكِ أن تُخدَعَ بما يقال: إنَّه يردّ مظلمةً أو يدفعُ عن مظلوم، فإنَّ هذه خدعةُ إبليسَ اتّخذَها فُجّارُ العلماءِ سُلّمًا"[5].

---

[1]- الكشكول، ج1، ص 213.
[2]- (م.ن)، ج1، ص 230.
[3]- راجع لؤلؤة البحرين، ص 19. وروضات الجنات، ج7، ص 67، وأعيان الشيعة، ج9، ص 243.
[4]- الكشكول، ج1، ص 36.
[5]- (م.ن)، ج1، ص 215.

وذُكر عند الصادق (ع) قولُ النبـــيّ: "النظر إلى وجه العالم عبادةٌ، فقال هو العـــالِمُ الذي إذا نظرت إليه ذكّرك بالآخرة، ومَن كان على خلاف ذلك فالنظرُ إليه فتنة"، وعن النبي أنَّه قال: العلماءُ أمناءُ الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان، فإذا خالطوه وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم، وعن النبي أنه قال لأصحابه: تعلّموا العلم وتعلّموا له الســـكينة والحِلم ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمُكُم بجهلِكُم، وعن عيسى (ع) أنه قـــال: "مثل العالم السوء مثل صخرة وقعت في فم النهر، لا هي تشربُ الماء، ولا هـــي تتـــرك المـــاء ليخلُص إلى الزرع"[1].

وقد ورد في بعض الكتب السماوية: "إذا أحبّ العالم الدنيا نزعْتُ لذّة مناجـــاتي مـــن قلبه"[2].

وأورد من القصص ما يمكن أن يكون عبرة له ولتلاميذه ولمعاصريه: "قال بعضُ العبّـــاد أعدت صلاةَ ثلاثينَ سنةٍ في الصفّ الأول، لأنّي تخلّفت يومًا لعذر فما وجـــدت موضـــعًا في الصفّ الأول، فوقفْتُ في الصفّ الثاني، فوجدت نفسي خجلاً من نظر الناس إلـــــيّ وقـــد سُبِقت بالصفّ الأول، فعلمْتُ أنّ جميعَ صلاتي كانت مشوبةً بالرياء، ممزوجةً بلذّةِ نظرِ النـــاس إلـــيّ ورؤيتِهم إيّايَ من السابقينَ إلى الخيرات"[3].

إنَّ القلقَ وعدمَ الرضى عن النفس والشعور الدائم بالإثم، والسعيِ نحو الخلاص الروحي نجدها في إحدى قصائده الفارسية[4] التي يمكن أن تُعدّ سيرة ذاتيَّة له، إنه يخاطب نفسه قائلاً:

"لقد صرتَ في الستين من عمرك ولا تزال مقيَّدًا بالقيود الأرضيّة وثملاً باللّهو واللّعب، قلتُ لعلّك عندما تصل إلى الثلاثين تجد نفسك، لقد قرأت وأنتَ في الثلاثين درسًا من كتـــاب الله عزّ وجلّ، لم يقدْك إلى معرفة الحق، ومن الثلاثين إلى الأربعين لم تحصّل غير الجهل، وهـــا أنت قد وصلت إلى الستين، ولا تزال غارقًا في الوبال، لم تضع قدمًا على طريـــق الحـــق، ولم تُضِفْ رقمًا إلى لوحِ الوفاء...".

وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة: يطلب إلى الساقي أن يسقيَهُ من الخمرة الطهور التي تخلّصُه من العلائق الجسمانية، وتنوّرُ قلبَه وتهديه إلى الصراط المستقيم.

إذا درسنا هذه القصيدة من الناحية المعنوية، ندرك مدى عَلاقتها بشخصيةِ صـــاحبها، فإنَّ أوّل ما نلاحظه، هذا الإلحاح على طلب المغفرة، والشعورِ بالتقصير، يقول إنه من الأربعين

---

[1]- (م.ن)، ج1، ص 198.
[2]- (م.ن)، ج1، ص 198.
[3]- (م.ن)، ج1، ص 12.
[4]- القصيدة الثالثة من مثنوي شير وشكر (الحليب والسكر)، كليات شيخ بهائي، ص 138.

وحتى الستين لم يخطُ خطوةً واحدةً في طريق الحقّ، ولهذا التحديد الزمني أهمية كبيرة تبيَّن ما تعنيه له تواريخُ معينةٌ:

ففي الثلاثين من عمره توفي والدُه: أي بدءُ الإحساس بالضياع النفسيّ، وبالشعور بالمسؤولية الذاتية، وبدءُ العمل في التدريس والوعظ رسميًا.

وفي الأربعين: بدءُ رحلة الحج التي تعدّ مفترق الطرق بالنسبة إلى أسلوبه في الحياة وتردّده بين قبول المنصب (مشيخة الإسلام)، أو عدم قبوله، بين سلوكِ خطِ المتصوفة، أو سلوك خط الفقهاء الظاهري (بما لذلك من علاقة بالحكام)، واهتمام بمظاهر الحياة الدنيا.

ومن الأربعين حتى الستين: قمةُ العطاء الفكري، وقد أعطى في هذه المرحلة أهم نتاجه العلمي والفقهي والأدبي، هذا من الناحية العلميّة، أما من الناحية النفسية فإنَّ شعورًا دائمًا بالذنب يلاحقه، وهذه ضريبة الإنسان المتفوق في سعيه الدائب نحو الكمال، فلا استقرار على الصعيد النفسي إلا لمن خفّ لديه الشعورُ بالمسؤولية؛ أما الآخر المجهز ببصيرة تدرك ما لا يدركه الآخرون ونفسيةٍ في أعماقها بعدٌ عن حبّ الدنيا وبهرجها وهو مضطرٌ إلى أن يعيش في قلب الظروف التي تفرض عليه التعاطي مع الآخرين، بكل ما يحملونه من رياء ونِفاق وغرور وتباهٍ، وحبّ للظهور ولو على جثث الناس، وعلى حساب الأخلاق والدين، مستغلين علومهم وأزياءهم لخداع العامة واللعب بعقولها، فإنه يعيش في قلق دائم وشعور بالذنب لا ينفكّ يلاحقه في ليله ونهاره.

وهذا هو الوجهُ الإنسانيُّ الخالدُ في أدب البهائيّ، العربيّ والفارسيّ، لا سيّما في شعره الفارسيّ، لأنّه كان ينتقد في شعره معاصريه، ويتحدّث عن نفسه، إلا أنه ينتقد أيضًا أفرادًا وجماعات، يعيشون في كلّ عصر ومصر، ما دام الإنسان على هذه الأرض تتجاذبه قوّتان، واحدة تشدّه نحو العلاء، ونحو عالَم المثل، وأخرى تجذبه نحو أسفل السافلين، وهو يخاطب فينا إحساسَنا الكامن بضرورة محاسبة النفس، وإعادة تقويم أفعالنا...

إذا كان الشيخ البهائيّ قد عرَّف الصدق بأنه استواء الظاهر والباطن[1]، فإنه انتقد في شعره العربيّ الذين يتصدّون للتدريس من دون أن يستعدوا له الاستعداد الكافي، ومن دون أن يكونَ مسلكُهم موافقًا لأقوالهم، وهذا الأمر ينطبق على فئة من المعلّمين في عصر البهائيّ، وفي كل عصر، لا هَمّ لهم سوى أن يجمعوا حولهم بعضَ المريدين من باب المباهاة، وهو يعيبُ على هؤلاء المعلّمين قلّةَ تعمّقهم في ما يعلّمون، وإن هم ناظروا مَن هو أعلمُ منهم ناظروه

[1]- الكشكول، ج1، ص 239.

مكابرةً، ومع ذلك يعيبون في مجالسهم العلماءَ الأفذاذَ الذين سبقوهم في ميادين العلومِ الرحبةِ، كي يسوّغوا جهلهم، وهم إذا ظلّوا على حالهم لَقَوْا في الآخرة لهيب السعير:

يقول: "إشارة إلى نُبَذٍ من حال مَن تصدى للتدريس في زماننا هذا:

مرادك أن ترى في كل يومٍ ... وبين يديك قومٌ أيّ قومِ
كلابٌ عاوياتٌ بل ذئابٌ ... ولكنْ فوق أظهرهم ثيابُ
فليس لهم جميعًا من بضاعةْ ... سوى "سمعًا لمولانا وطاعةْ"
وإن شمّرت عن ساق الإفادةْ ... جلستَ لهم على عالي الرّفادةْ
وأسّست السؤالَ لمن تكلَّمْ ... ودلَّست الجوابَ لكي يسلِّمْ
وقرّرت المسائلَ والمطالبْ ... ولست بذا لوجه الله طالبْ
وسُقت لهم كلامًا في كلامِ ... وقلبك من ظلامٍ في ظلامِ
وإن ناظرت ذا نظرٍ دقيقِ ... وفكرٍ في مطالبه عميقِ
عدَلت عن النهج القويم ... وزُغتَ عن الصراط المستقيمِ
تكابرُه على الحقِّ الصريحِ ... فإن ناجاك في نقلِ الصحيحِ
طفِقتَ تروغُ عن نهج السبيل ... وتقدحُ في الكلامِ بلا دليلِ
... وعبتَ أئمةً قالوا بذاكا ... وفي تجهيلهم فعّرتَ فاكا
لئن لم ترتدعْ عن ذي الظلامةْ ... فبئس الحالُ حالُك في القيامةْ[1]

وللبهائيّ قصيدة بالفارسيّة ينتقد فيها أيضًا المدرّسين الذين يحشون عقول تلاميذهم بالخرافات ويقول: إنَّ درسَهم ليس درسًا "إنّه بئسَ المرض". فالقصيدتان معًا تؤلّفان موضوعًا متكاملاً، وتعطيان صورة عن الأسلوب الساخر الذي يستخدمه البهائيّ في النقد الاجتماعيّ متدرجًا من المعاني العامة إلى التجزيء والتفصيل:

يقول: ما هو الخبز والحلوى[2]؟ ويجيب قائلاً: إنّه تدريسُك الذي هو مظهرُ غشك وخداعك، لا همّ لك سوى إظهارِ الفضائل وجمعِ العوامّ حولَك، وجعلِهم من أتباعِك ومريديك، وأنت بالخداع تجهِدُ نفسَك لإدخالهم في مصيدتِك... إنَّ الدرس الذي تُعلِّمه إن لم يكن قربةً إلى الله تعالى ليس درسًا إنه "بئسَ المرض".

وفي قصيدة فارسية أخرى عنوانها:

"في ذم العلماء المتشبهين بالوزراء المترفّعين عن سيرة الفقراء"[3].

---

[1]- (م.ن)، ج1، ص 149، وسلافة العصر، ص 297، ونزهة الجليس، ج1، ص 380.
[2]- القصيدة من مثنوي "نان وحلوا" الخبز والحلوى: كليات شيخ بهائي، ص 129.
[3]- القصيدة السادسة من مثنوي "تان وحلوا": كليات شيخ بهائي ص 12.

يسمي هؤلاء الناس المجازيين، ويخاطبهم بقوله:

إنَّ العلم يستمد الـــحُسنَ من الفقر لا من الحدائق والضياع.

إنَّ الحشمَ والمال والمتاع الدنيوي دلالةٌ على نقص العلم.

ويقول لهم: ما هذا الفراء والخز الذي تلبسونه كالملوك؟

وماهذه الفراخ والأسماك التي تزيّن موائدكم؟

إن كنتم تدّعون التقى والكمال أخبرونا إن كان هذا المالُ حلالاً ميسورًا... ويخاطـــب الذين رفعوا لواء العلم الدينـــيّ قائلاً:

إلى متى ستظل ناعمَ الملبس طيّبَ المعلف؟

إنَّ الدين بريءٌ منك ومما تقول، لقمتُك تأتي من طريق مشبوه!

أيّها التراب الذي يأكل التراب!

أيها المفتون بظاهر الدين، وقلبُك خالٍ من العرفان والنور الحقيقي.

إنّه ينصح هؤلاء المتعالمين الذين يستغلون الدين لمآربهم الدنيوية بالعبادة الصحيحة، أولى درجات السلّم الموصل إلى معرفة الحقّ، فلقمة الخبزِ المشبوهةُ المصـــدرِ لا يطهّرهـــا إلا حـــرمُ الكعبة، هذه اللقمة الطهور: بيدك تبذر حبّاتها وبيدك تفلح أرضها أثلامًا، وتحصدها، وتجعل من حجر الكعبة رَحًى لها، وبماء زمزم تعجن طحينها... إنَّ هذه اللقمة تقهـــر الـــنفس العصـــيّة الخاطئة:

وأنت إن لم تفعل ذلك فإنّ دينك ليس أكثر من مباهاة. ثم يقول: إنَّ العبادة وحدها لا تكفي، إنّها تحتاج إلى القناعة لتسندها في طريق الحق، والقناعةُ إنّما تكون بالتخلّي عن كـــل المظاهر الخادعة الكاذبة، امتنع عن لبس الحرير والخز، فلست بحاجة إلى أكثر من رداء بســـيط يستر جسمك، ولتكتفِ بالبصلِ والخبزِ اليابس وتكفّ عن أكل المزعفر المطيّب؛ قدمك خيرٌ من اللجام المحلّى بالجواهر.

وحصير المسجد أفضلُ من السجّادِ الحريريّ.

كل ما في هذه الدنيا يمكنك تعويضه عدا شيء واحد: عمرك.

ويقول: إنَّ الإنسان لا يصل إلى الكمال الحقيقي إلا إذا ترك مباهج الدنيا، وذبحَ بقـــرةَ نفسه، كما قال عز وجلّ: {***إنَّ الله يأمركم أنْ تذبحوا بقرة***} سورة البقرة، آية 67: فإذا كان جدّنا آدم، بعدما قيل له أسكن أنت وزوجك الجنة، وكانت الملائكة له ساجدين صدر منـــه

ذنب واحد، فأُمِر بالخروج منها فكيف ترجو أنت دخولَها، مع ما أنت مقيمٌ عليه من الذنوب والخطايا أيها المسوّد الوجه[1]؟

ويخاطب الإنسان الذي يسعى للخلاص الروحي بقوله:

أيّها المأسور في قيد الذنوب أيّها المحروم مـــن سرّ الغيوب
لا تقم في أسرِ لذات الجسد إنَّها في الجيدِ حبلٌ مـــن مسد
قم توجّه شطر إقليم النعيم واذكر الأوطان والعهد القديم

إنَّ كنـــز العلم "النبـــيّ (ص)" الظاهر والباطن قال "إنَّ حبّ الوطن من الإيمان" هذا الوطن ليس مصر ولا الشام ولا العراق.

هذا الوطن مدينة لا اسم لها.

كيف يعود إلى هذا الوطن (سعي الروح في العودة إلى موطنها الأصلي حيث كانت قبل أن تلتصق بالجسد الترابي الكثيف)؟ بقطع العلائق مع الدنيا الدنية وفكّ القيود التي تشـــدّه إلى الأرض[2].

ولا يكون ذلك إلا بمعاناة الآلام للوصول إلى الراحة الكبرى، وبالمجاهدة والتخلي عـــن مظاهر الحياة الدنيا يقول ما ترجمته:

ليس مَن زاد سوى التقوى على هذا الطريق، وبطرح الخبز والحلوى.
الخبز والحلوى! ما هي؟ جاهُك ومالُك وحدائقُك والحشمُ والإقبال على مظاهر الحياة.
الخبز والحلوى! ما هي؟ هي طولُ الأمل، والعلمُ بلا عمل.
الخبز والحلوى! ما هي؟ سأخبرك: إنّها سعيُك الدؤوب من أجل تحصيل المعاش.
الخبز والحلوى! ما هي؟ إنّها زوجتُك وأولادُك، الذين يُقيّدون عنقَك.
ما هو ثمن الخبز والحلوى غيرُ منّةِ الناس[3]؟

إن لم يترك الإنسان الخبز والحلوى (العلائق الدنيوية) يكن كالعابد الذي "قَلَّ الصـــبر لديه فتفوق الكلبُ عليه[4].

يتناول في هذه القصيدة قصة العابد الذي قلّ صبره فتفوق عليه كلب الشيخ المجوســـيّ: وملخص القصّة أنّ عابدًا كان منـــزويًا في غار، وكان يصوم النهار ويأتيه كلّ ليلـــة رغيـــفٌ يفطر على نصفه ويتسحّر بالنصف الآخر، وظلّ على ذلك مدّةً طويلة لا ينـــزل من الجبـــل،

---

[1]- مثنوي "تان وحلوا" القصيدة السابعة: كليات شيخ بهائي، ص 124.
[2]- القصيدة الثامنة من مثنوي "نان وحلوا"، وهي ملمع بالعربية والفارسية: كليات شيخ بهائي، ص 124.
[3]- (م.ن)، القصيدة التاسعة، ص 126.
[4]- (م.ن)، ص 127 القصيدة العاشرة في ثلاثة وأربعين بيتًا.

فاتفق أن انقطع عنه الرغيف في ليلة من الليالي فاشتدّ جوعُه وقلّ هجوعه... وكان في أسفل ذلك الجبل قريةٌ سكانها من المجوس، فعندما أصبح العابد نزل إليهم واستطعم شيخًا منهم فأعطاه رغيفين من خبز الشعير، فأخذهما وتوجه إلى الجبل، وكان في دار ذلك المجوسي كلبٌ جربٌ مهزولٌ، فلحق العابد، ونبح عليه، وتعلّق بأذياله فألقى إليه العابد رغيفًا من دينك الرغيفين، ليشتغل به عنه، فأكل الكلبُ ذلك الرغيف، ولحق العابدَ مرة أخرى، واشتدّ هريرُه، وتشبّث بذيل العابد ومزّقه، فقال العابد: سبحان الله إنّي لم أرَ كلبًا أقلَّ حياءً منك، إنّ صاحبك لم يعطني إلاّ رغيفين وقد أخذتهما مني... فأنطق الله تعالى ذلك الكلب؛ فقال: لست أنا قليل الحياء بل أنت، إعلم أني رُبّيت في دار ذلك الشيخ أحرس غنمه وأحفظ داره، وأقنع بما يدفعه لي من عظام أو خبز، وربما نسيَني فأبقى أيامًا لا آكل شيئًا، بل ربما يمضي علينا أيام لا يجد هو لنفسه شيئًا ولا لي، ومع ذلك لم أفارق دارَه، ولا توجّهت إلى بابِ غيره... وأما أنت فبانقطاع الرغيف عنك ليلةً واحدة، لم يكن عندك صبرٌ ولا كان منك تحمّل، حتى توجهت من باب رازق العباد إلى باب مجوسيّ، وطَوَيْتَ كَشحكَ عن الحبيب وصالحت عدوّه المريب، فأيّنا أقل حياءً أنا أم أنت...؟

ثم إنه ينتقد الذين يدّعون الزهد والتقوى من أجل العزّ والجاه والتقرّب من السلاطين، ويبيعون دينهم من أجل الخبز الحرام، ويعتمدون المكر والحيلة لتسخير العوام، ولأكل مالِ السلطان...

ثم يقول: إنّ قربَ الملوك آفةُ الروح ألم يقل الله عزّ وجلّ {***لا تركنوا إلى الذين ظلموا***} سورة هود، آية 113، وكأنَّ لذّة مخاطبة الشاه كلَّ لحظة كمن يعبده هي غاية الحياة:

ما هذا الإسلام؟ إنّه الشرك بعينه.

الله الله أيّ إسلام هذا وأيّ دين؟ إنه شرك وربّ العالمين.

ويمثل لهذا الرأي بحكاية ملخّصُها أنّ شابًا من خواص الملك، رأى عابدًا في الصحراء يتقوّتُ من الأعشاب البريّة كأنّه ظبيٌ ضال، فيسأله الشاب، لِمَ لا يدخل في خدمة الملوك ويرتاح من أكل الأعشاب؟ فيجيبه العابد: يا من تفتخر بخدمة الملوك؟ لو أنّك مثلي تأكل العلف لما أتلفت عمرك في هذه الخدمة[1].

ويقول: ما الخبز والحلوى؟ إنّها المنصب الذي تدور حوله.

أتعرف ما هو المنصبُ الدنيويُّ الذي تسعى وراءه؟

[1]- مثنوي "نان وحلوا"، القصيدة الخامسة عشرة، كليات شيخ بهائي، ص 130.

إنّه القيدُ الذي يمنع الإنسان من التحليق والوصول إلى معرفة الحق.

إنّه القيد الذي يدفع الإنسان إلى ذلّ الحرمان المعنوي.

إنّه الرغبة في الشهرة، والسمّ الذي تشربه ليل نهار من دون أن تدري. ما هو المنصب؟ إنّه القلق الذي يعتورُك والذي يذرو غلّة دينِك في مهب الريح. ألم يقل المولويّ المعنويّ[1]:

اترك الدنيا لتصبح سلطانًا وإلاّ فستبقى مضطربًا حائرًا كدولاب دائم الحركة، باطن الدنيا سمّ كسمّ الحيّة، وإن كان ظاهرها نقشًا وزينةً، سمّ هذه الحيّة المرقّشة قاتل، يهرب منه كلُّ إنسان عاقل؛ ولهذا السبب قال سيّد الأولياء: "حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وترك الدنيا رأس كلّ عبادة"[2].

ويقول ما الخبز والحلوى؟ إنّها أعمالك وجبّة الصوف التي تلبس...

ينتقد أدعياء التصوف الذين يلبسون لباس الدراويش، ويتظاهرون أنّهم من أهل السلوك. ولكنّ التقوى الحقيقية ليست بما يلبس الإنسان وإنما بما يعتقد...

يقول: لا يصل الساعي إلى الحقّ إلاّ إن كان ظاهره كباطنه، وإنْ كان مخالفًا له، فجهنم مأواه وبئس المصير[3].

أمّا خلاصة منهج البهائيّ الفكريّ فيلخصه قوله في مقدّمة مثنوي "الخبز والجبن"[4] "في ذم المنتقدين للحكمة وينكرون لطائفها وسرائرها من الغفلة والظلمة، وفي تفسير مَن تفقّه ولم يتصوّف فقد تفيقه، ومَن تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقّق":

إنّه ينتقد أتباع الظاهر من رجال الدين المنكرين للحكمة ولطائفها، الذين لا يميّزون بين الرأي والاستحسان وبين الاجتهاد، وقد قصروا علوم الدين على الفروع، يؤكّدون على الظاهر دون الباطن، مثلهم كمثل العوام:

ينتقدون الحكمة وهم لا يعرفون ماهيّتها.

يقفون عند ظاهر الأحكام ولا ينفذون إلى بواطنها.

ينتقدون العلم والفلسفة ولا يدركون كنه الحكمة:

ذلك الطائر القدسيّ الظامىء إلى الحقّ.

... المتوجّه أبدًا إلى عالم النور الأعلى حيث الجمال والكمال... وهو يخاطب هؤلاء الجاهلين بقوله:

---

[1]- المولويّ المعنويّ: الشاعر جلال الدين الروميّ.

[2]- مثنوي نان وحلوا، القصيدة الثامنة عشر، كليات شيخ بهائي (م.س)، ص 132.

[3]- (م.ن)، ص 133، القصيدة العشرون.

[4]- مثنوي "نان وبينير"، الخبز والجبن، كليات شيخ بهائي، ص 144.

إنّ الحكمة هي الكنـــز المطلوب إن اقترنت بالفقه والزهد. فالفقـــه زاد الســـالكين، والزهد تجريد القلب من حبّ غير الله، والتسليم المطلق لإرادة الله، وعدم السرور بمال آتٍ ولا الأسى على نعيم زائل، وإذا كان حبّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة، فإنّ أهل الدنيا وقفوا إزاءهـــا محتارين، وإذا كان حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة فإنّ بين حبّ الشيء والشيءِ ذاته فرقًا كـــبيرًا كالفرق بين طعم التفاحة وبين شكلها ولونها.

فالطفل لا يتعلّق إلاّ بلونها والعاقل يأكلها لفائدتها.

لذلك فإنّ العقلَ مدارُ الأمور كلّها.

أمّا أتباعُ الظاهر فإنّهم يفضّلون النقلَ على العقل.

والعلماء الحقيقيّون هم الذين يُخضعون النقلَ لسلطة العقل.

وهو يمثل لهذا الرأي بقصة العابد الذي تفرّغ للعبادة ليل نهار، وابتعـــد عـــن اللـــذات الدنيوية، حتى وصل صيته إلى عليّين، فنظر الملائكة في لوح أجره، فإذا أجره قليل حقير، فسألوا ربّ العزّة عن سرّ ذلك فأمرهم أن يقضوا معه وقتًا ليعرفوا السرّ بأنفسهم، فنـــزل مَلـــك إلى الأرض بصورة آدمي، ليضعَ عبادةَ الزاهد على المحكّ، ومن الحوار الذي دار بين المَلَكِ والعابد، نعرف أنّ سببَ قلّة أجرِ المتزهّد نقصانُ عقله.

لقد كان عقله فاسدًا ناقصًا، ولكنّ الفساد ليسا ظاهرين، لذلك كان أجره على قـــدر عقله، لأنّ مالك الملك عزّ وجلّ خلق لكلّ إنسانٍ عقلاً، وهو يحاسب الناس على قدر عقولهم[1].

ويعرّف البهائيّ العقلَ أنّه مقتبسٌ نورُه من المشكاة الأزلية، وأنّ العقلَ عينُ الذات، وهو النورُ الأعظم، ظاهرٌ بذاته غيرُ محتاج إلى غيره، نورُه منبثق من شمس المعرفة، ومهمة نور العقل الداخليّ تنويرُ القلب، كما انّ نور الشمس الظاهريّ ينير الموجودات[2].

والعقل الإيمانـــيّ كالحاكم العاقل على مدينة القلب، يظلّ متيّقظاً كـــالهر في انتظـــار الفأر، وكما أنّ الفأر لا يستطيع أن يأكل الطحين إلاّ في غياب الهر أو حين موتـــه، كـــذلك القلب لا يتسلّط على صاحبه إلاّ في غياب العقل، والعقل في الجسد هو الحاكم علـــى مدينـــة الإيمان والمسيطر على النفس.

والعقل عقلان: عقل مكتسب من التعلّم ومن الكتاب والمعلّم والفكر والعلوم، وعقـــلٌ هو هبةٌ من الله عزّ وجلّ.

---

[1]- (م.س)، ص 148.
[2]- (م.ن)، ص 149.

والعقل المكتسب التحصيليّ يشبه السواقي التي تستمدّ مياهها من النهر الكبير فإذا ما سُدّت طريقُها لا تجدُ حيلةً، فيجفّ ماؤها ويُصيبُها الجفاف، أمّا العقل الذي هو هبة الله عزّ وجلّ، فإنّه في داخل الإنسان كالينبوع الذي لا يجف ولا يأسن، وعلى الإنسان أن يفتّش عنه في داخله.

ويخاطب البهائيّ الإنسان بقوله: اجتهد لتكون سيّد العقل والدين، لأنّك بعيدًا من سلطة العقل تظلّ كالخفّاش شقيًا في ظلمة الجسد... إنّ العقل هو الذي يقيّد الشهوات.

وكما أنّك تُخضع المعادن للنار لتَميزَ الذهب من غيره، كذلك يجب أن تخضع النقلَ والروايات لسلطة العقل لتميز الصحيح من السقيم...

بالعقل يتميز الإنسان من الحيوان، ومَن أصبح و لم يتفكر في شؤون الخلق وشجوهم، فهو كالأنعام بل أضلُ سبيلاً.

إنّ التفكير في أمر الدين أفضل من عبادات السنين.

فالنفس التي تتفكر وتعتبر، تتدبر امر علاجها بنفسها، بتقوى القلب والصلاح الفعليّ، وبالتفكّر وأخذ العبرة...

إنّ الجهال وحدهم هم الذين يعبدون الله من طريق العادة، وهم إمّا يهدفون إلى خداع العوام وتجميعهم حولهم، أو من أجل الدنيا هم يسعون[1].

إنّ العبادة طمعًا بالجنة هي عبادة العبيد، أمّا العبادة الحقيقية فهي العبادة التي لا مقايضةَ فيها.

إنّ العبادة طمعًا أو خوفًا هي عبادة الجهّال: وهذا هو إسلام العوام: إنّها مرحلة تلت مرحلة عبادة الأوثان، و لم يصل هؤلاء بعد إلى الإسلام الحقيقيّ[2]...

خلاصة القول إنّ بهاء الدين العامليّ قاد الصراع الفكريّ في إيران على جبهتين:

أوّلاً: مواجهة الفقهاء القشريين الجامدين المعجبين بالظواهر، المنكرين للتصوّف والعرفان والذوق، الذين وقفوا تعاليم الدين على بعض المسائل والطقوس، وأعرضوا عما هو جوهر الإسلام وتجاهلوه. الذين استغلّوا مناصبَهم الدينيّة للشهرة والغنى والجاه، واستغلّوا زِيّهم الخاصّ وسلطتهم المعنويّة للتأثير في العوام، وهم المفتونون بظاهر الدين، وقلوبهم خالية من العرفان.

---

[1]- "نان وپنير" الخبز والجبن، (م.س)، ص 152.
[2]- (م.ن)، ص 153.

ثانيًا: مواجهة متصوّفة عصره الذين يدعون إلى الباطن دون الظاهر، والذين بالغوا في بعض الطرائق الصوفيّة، وبعض الممارسات وتظاهروا بالتقوى والزهد، و لم يكن لباسهم موافقًا لسرائرهم، وطغت عندهم الطرق والشكليات على أساليب النظر الفلسفيّ العميق، وانتهى التصوّف على أيديهم، لا سيّما في زمن الصفويّين- حيث كان للتصوّف تأثير شديد في العامة، الذين يتعلّقون عادة بالخوارق والكرامات- إلى تقاليدَ وطقوسٍ شكليةٍ خالصة، وقد انتقدهم البهائي في مثنويّاته الفارسيّة وفي قصّة "موش وگربة" (الهر والفأر) لأنّهم أعرضوا عما هو جوهر الإسلام وتجاهلوه، ورأى أنّ التوكيد على الباطن، لا يعني مطلقًا النسخ الخالص البسيط للشريعة ولحرفية النص وظاهره، وإنّما يعني أنّ الشريعة، إذا تجردت من الحقيقة ومن الباطن، لا يبقى منها سوى جدول التعاليم والمعتقدات، بدل أن تظلّ منفتحة لنشأة المعاني الجديدة. هي دعوة لإقامة التوازن بين الحقيقة والشريعة، بين الظاهر والباطن.

أهم المصادر والمراجع:

المصادر:

(1) الحبل المتين للشيخ البهائيّ: منشورات مكتبة بصيرتي، قمّ، إيران، لا.ت.

(2) الكشكول للشيخ البهائيّ: طبعة الأعلمي، ثلاثة أجزاء، ط6، 1403ه/1983م، بيروت.

(3) كليات آثار وأشعار شيخ بهائي (بالفارسيّة) تقديم سعيد نفيسي، تهران، 1361ش/1982م.

(1) الإسلام وإيران، مرتضى مطهري، تعريب محمّد الهادي اليوسفيّ، دار التعارف، دار التبليغ، 1400ه.

(2) أعيان الشيعة للسيّد محسن الأمين، طبعة جديدة، د. حسن الأمين، دار التعارف لا. ت.

(3) خلاصة الأثر: للمحبي، الجزء الثالث، مكتبة خياط، بيروت، لا. ت.

(4) ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا للخفاجيّ، ت. عبد الفتاح الحلو، عيسى... الحلبيّ، لا. ت.

(5) روضات الجنات للخوانساريّ، المكتبة المرتضوية، طهران، لا. ت.

(6) سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، لابن المعصوم، المكتبة المرتضوية، لإحصاء التراث، طهران، لا. ت.

(7) الغدير في الكتاب والسنة، لعبد الحسين الأمينيّ النجفيّ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لا. ت.

(8) قصص العلماء، التنكابنيّ، المكتبة المرتضوية، طهران، لا. ت.

(9) مستدرك الوسائل، للطبرسيّ، ت. آغا بزرك الطهرانيّ، منشورات المكتبة الإسلامية، طهران، سنة 1983م.

(10) بهاء الدين العامليّ "أديبًا وفقيهًا وعالِمًا". دلال عباس، ط. دار المؤرّخ العربيّ 2010م.

المراجع الفارسيّة:

(1) إيران در "زمان صفويه" أحمد تاج بخش، تبريز 1340ش [1961م].

(2) تاريخ أدبيات إيران أز آغاز صفويه تازمان حاضر: أدوارد براون- ت. رشيد ياسمي، چاب دوم، تهران 1329ش [1950]م.

(3) تشكيل شاهنشاهي صفويه، نظام الدين مجيرشيباني، انتشارات دانشگاه تهران/1345ش [1966]م.

(4) زندگانى شاه عباس أول، نصر الله فلسفي:

أ- جلد أول، چاب أول تهران 1334ش [1955م].

ب- جلد دوم، چاب چهارم تهران 1347ش [1968م].

ج- جلد سوم، چاب دوم تهران 1345ش [1966م].

د- جلد چهارم، چاب دوم تهران 1346ش [1967م].

هـ- جلد پنجم، چاب أول، تهران 1352ش [1973م].

(5) فرهنگ فارسى، محمد معين، لغت نامه، چاب ششم 1363ش [1984م].